العدول في أسلوب الاستفهام وأثره في إغناء المعنى (دراسة تطبيقية على شعر امرئ القيس)

هاجر سليمان طه
جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا - كلية اللغات - قسم اللغة العربية

المستخلص :

يتناول البحث أسلوب الاستفهام في شعر امرئ القيس مبينا كيف استخدم الشاعر هذا الأسلوب بأدواته المختلفة في خدمة أغراضه، واتبع البحث المنهج الوصفي محللا الأبيات التي يرد فيها الأسلوب لمحاولة الوصول إلى خصائص الأسلوب عند الشاعر. تكمن أهمية البحث في تعلقه بدراسة الأسلوب عند شاعر يعتبر شعره من أهم مواد الدرس البلاغي، وقد خلص البحث إلى أن الشاعر استخدم الأسلوب بكثافة مستفيدا من قواه العدولية ولم يرد الأسلوب عند الشاعر في معناه الحقيقي.

كلمات مفتاحية: التمني، الانزياح، الجاهلية.

ABSTRACT:

This study deals with the exclamatory style of *Imru' al-Qais* poetry and it explains how the poet used this style with its different tools to serve his purposes. The study uses descriptive approach to describe the verses that include the style with the aim to reveal the characteristics of the poet's style. The importance of this study implies in its regards to the style of the poet which is regarded one of the important sources of studying stylistics. The study concludes that the poet used the style intensively taking advantages of his talent in Udool. The poet didn't happened to use this style in its literary meaning.

Key words: Optative mood, Al udool (Equalization), style

المقدمة:

تعتبر دراسة الأسلوب من الدراسات البلاغية النقدية المتجددة الفائدة، ولما كان الشعر العربي ديوان العرب والمُعبِّر عمّا لِ لُغتهم من أعماق وما لبيانهم من وجوه وألوان لا جرم كان في دراسته والنظر فيه منذ فجر الحضارة السلامية قيمته العلمية والفنية والأد بية، وهو مبحث لن تنفد الحاجة إليه ما دام وجود العربية ودرسُها. وهو أمر لن ينفك قائما مرتبطا بدوام وجود القرآن بدروسه المختلفة.

وذهبت الدراسات الأسلوبية الحديثة إلى دراسة العدول، أو الانحراف الأسلوبي بغرض الوقوف على الغنى المعنوي الذي يستفاد من هذه الظاهرة.

أسئلة الدراسة وفروضها:

تتساءل الدراسة عن طاقة العدول الكامنة في أسلوب الاستفهام، إذ يعتبر هذا الأسلوب من الأساليب الغنية في الدلالة، التي تخرج عن معناها الأصلي باضطراد باثّةً في المعاني أبعادا مختلفة، وهدفت الدراسة إلى النظر في كيفية ورود هذا الأسلوب في شعر الشاعر، ومدى تأثيره في إغناء شعره، واحتمال معانيه وظلال معانيه. وتفترض الدراسة أن أسلوب الاستفهام ورد في شعر الشاعر بقدر معين وأنه استخدمه في معناه الأصلي أحيانا؛ وأنه عدل عن ذلك المعنى أحيانا أخر، وأن الشاعر أفاد من طاقة العدول الكامنة في هذا الأسلوب لإغناء معانيه وتقويتها وتأكيدها.ذلك أن أسلوب الاستفهام هو واحد من أغنى الأساليب بإمكانية التعبير عن معانَي

خارجة عن معناه الحقيقي في الاستفهام. ولا أدل على ذلك من كثرة وروده في القرآن الكريم مع استغناء الله تعالى عن السؤال والاستفهام.

منهج الدراسة وحدودها:

اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي في درس أسلوب الاستفهام وطاقته العدولية، واختار شعر امرئ القيس لتطبيق بحثه، وكان استقصائيا في النظر في شعر الشاعر مستخرجا أبيات الشعر التي ظهر فيها الأسلوب، وانتقائيا مكتفيا بالتمثيل والتحليل للبعض دون الكل عند طرح وجهة نظر الباحثة إذ كان ذلك البعض دالا وكافيا. وقد اعتمدت الدراسة على ديوان امرئ القيس الذي شرحه د. محمد الاسكندراني ود. نهاد رزوق وطبعته دار الكتاب العربي بلبنان عام 2011، واعتبرتُ منه القصائد التي رواها الأصمعي والتي رواها المفضل في نسخة الطوسي دون غير ذلك من الزيادات.

أهمية الدراسة:

تُعد الدراسات الأسلوبية مرتكزا من مرتكزات البحث البلاغي، كما يعتبر الشعر الجاهلي معينا للدراسات الأسلوبية كونه النص المعاصر للقرآن الكريم، وإنما تقاس بلاغة القرآن وإعجازه إليه، كونه يمثل المستوى البلاغي الذي تحدى القرآن أهله بعد أن شهد لهم باللسن والفصاحة.

العدول:

العدول لغة : جاء في لسان العرب: عَلَ يعدِلُ عُولا إذا مال كأنه يميل من الواحد إلى الآخر، عَلَ الفحل عن الضراب فأنه لَ: نحّاه فتنحّى. (ابن منظور، مادة عَل) وجاء في تاج العروس: عَلَ عَنْهُ ، يَعْلُ ، عَلاً ، وعُولاً : حَادَ ، وعن الطَّرِيقِ: جَارَ وعَلَ إِلَيْهِ ، عُولاً : رَجَعَ . (الزبيدي: مادة عدل) فمن دلالات اللفظ التنحي والميل، ومن هذا المعنى من معاني الفعل جاء المعنى الاصطلاحي.

العدول اصطلاحا : لا يبعد المعنى الاصطلاحي عمّا دار عليه المعنى اللغوي. والعدول من حيث هو مصطلح لساني يشمل طيفا أوسع من الإجراءات مما هو عليه عند اعتباره مصطلحا بلاغيا، ويمكن عند توصيفه على أنه مصطلح من مصطلحات البلاغة الحديثة القول بأنه الانحراف والانصراف عن أصل الاستخدام في التراكيب والأساليب إلى استخدام جديد يحمِّل الشكل اللغوي أكثر مما يحتمله في أصل استخدامه.

والحق أنّ هذا المفهوم قد تعددت المصطلحات (الألفاظ) الدالة عليه، وعند عرض عبد السلام المسدّي([1]) لمصطلح (الانزياح) وهو يُعدُّ مرادفا للعدول–بيّن أن المصطلح ناتج عن ترجمة لكلمة (l`ecart) الفرنسية، وقرر أن ترجمة هذا اللفظ لم يُتفق عليها لأن مُتصوَّره غير مستقر. يقول المسدّي:" على أنّ المفهوم ذاته قد يمكن أن يصطلح عليه بعبارة (التجاوز)، أو أن نحيي له لفظة عربية استعملها البلاغيون في سياق محدد وهي عبارة العدول" (المسدي: ص163)

وبغض النظر عن المُشاحّة في المصطلح، فإن المفهوم يظهر في قول المسدي: " يعتبر الأسلوبيون أنه كلما تصرف مستعمل اللغة في هياكل دلالتها أو أشكال تراكيبها بما يخرج عن المألوف انتقل كلامه من السمة الإخبارية إلى السمة الإنشائية" (المسدي ص163) إذن فالمسدي يربط الانتقال باللغة من الاعتيادية إلى الأدبية بإجراءات العدول والتصرف في اللغة.

ويقول ابن الأثير:" إن العدول عن صيغة الألفاظ إلى صيغة أُخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك" (ابن الأثير: ج2 ص145). وباعتبار هذا القول لابن الأثير فيمكن أن نعرف العدول بأنه: انصراف عن صيغة

في اللفظ إلى صيغة أخرى لخصوصية اقتضته. وبالنظر إلى ذاك التعريف الحديث أو هذا التعريف القديم فإنهما يبدوان محدودَين، إذ كأنّ هذين التعريفين يشملان فقط مايختص بالتغيير الشكلي والتلاعب ببنية اللفظ لإعادة تشكيل الدلالة. ولكن هناك إجراء آخر لا يشمل تغييرا في البنية بقدر ما يشمل تغييرا في الدلالة. وهذا هو ما نحن بصدده.

ففي مجال كمجال الخروج بالصيغ والتراكيب الإنشائية كالاستفهام والنداء والأمر، إلى معانٍ إضافية غير المعاني الأصلية التي يستخدم فيها الأسلوب؛ لا يكون العدول مشتملا على تغيير في بنية الأسلوب. بقدر ما يكون العدول في دلالة الأسلوب بحيث يفيد معنى ثانيا.

وإذن فيمكن أن يقال أنّ العدول المعروف أيضا بالانزياح والانحراف وغير ذلك عند معاشر اللغويين والأسلوبيين متعلق بتباعدٍ ما بين أصل ثابت ومعروف وفرع جديد مختلف ومستمد من ذات الأصل.

وبما أن ريفاتار([2]) اعتبر الانزياح في إحدى صوره خرقا للقواعد (المسدي ص103) فإنّ العدول في الاستفهام يتمثل في خرق قاعدة دلالة الاستفهام على معنى طلب الإفهام؛ واستخدام هذا الأسلوب في معانٍ أخرى بعيدة عن معناه الأصلي.

امرؤ القيس الشاعر:

أما امرؤ القيس فهو بن حجر بن عمرو الكندي من أهل نجد وضعه ابن قتيبة في أول الطبقة الأولى من الشعراء وسرد من أخباره الكثير، أشعر شعراء الجاهلية وقال ابن قتيبة إن مِنْ أكثر من روى أخباره الفرزدق لأن امرأ القيس عاش فترة في بني دارم قوم الفرزدق مع عَمِّه شرحبيل (ابن قتيبة، الشعر والشعراء ص48) .

قال عنه عمر بن الخطاب إنه سابق الشعراء، خسف لهم عين الشعر، وقدّمه عليُّ بن أبي طالب قائلاً إنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة، وإنه أحسن الشعراء نادرة وأسبقهم بادرة (ابن رشيق ج1 ص42).

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى إنه أول من فتح الشعر واستوقف وبكى في الدمن ووصف مافيها (ابن قتيبة:الشعر والشعراء ص52)

وقال الفرزدق: هو أشعر الناس. قدّمه بقوله:

وقاهم جَدُّهم ببني أبيهم * وبالأشقَين ما كان العِقابُ**(ابن رشيق ج1 ص94-95)

واستجاد الذ ُقاد قوله

كأنّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً* لدى وكرِها العنّابُ والحشفُ البالي**

واستشهد به عبد القاهر الجرجاني في وصف شيئين بشيئين ووصفه بأنه "مما ندر ولطف مأخذه ودقّ نظر واضعه" (عبد القاهر الجرجاني ص95)

وقال ابن رشيق: "قال العلماء بالشعر إنّ امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتّبعوه فيها" (ابن رشيق ج1 ص94)

إذن فامرؤ القيس صاحب المعلقة المشهورة مقدَّم الشعراء ، وحفلت كتب التراث بأخباره وشعره، وروى ديوانه الأصمعي وغيره ولم يخل من منحول كما قال كثير من العلماء.

ويُعدُّ شعره مادةً مهمةً من موادِّ الدراسات الأدبية، وساحة جيدة لتطبيق الدراسات الأسلوبية، لما اتفق عليه العلماء من جودة أسلوبه، ونصاعة بيانه، وأسلوب الاستفهام من الأساليب التي يكثر خروجها عن معناها

الأصلي، فاهتمت هذه الدراسة بالنظر إلى الطريقة التي استفاد بها الشاعر من القُوى التعبيرية الكامنة في هذا الأسلوب، وكيف أعانه ذلك على أداء معانيه على أفضل وجه وأكمله.

الاستفهام:

هو أسلوب إنشائي الغرض منه طلب الإفهام والإعلام وهذا واضح من معنى الفعل: استفهم. فهو الأسلوب الذي يطلب به الجواب عن السؤال وينتظر الرد عليه، هذا هو المعنى الابتدائي والأصلي للاستفهام، وسنرى أنه يخرج إلى غير ذلك من المعاني.

للاستفهام أدوات: حروف وأسماء، ذكر الأنباري أن حروف الاستفهام ثلاثة؛ الهمزة وأم وهل . وما عداها ظروف وأسماء أقيمت مقامها (الأنباري ص 32β). فالأسماء: من، وما، وكم، وكيف، والظروف: أين وأنّى ومتى وأيَّ حين، وأيّان (الموضع السابق)

فالهمزة لطلب التصديق والتصور، والتصديق هو السؤال عن الشيء أكان أو هو كائن أم لا، وعرّفه السكاكي بأنه: "لطلب تعيين الثبوت والانتفاء في مقام التردد" (السكاكي ص308) وتكون الإجابة عنه بالنفي أو الإيجاب، فإن قلت: أقام زيد، تكون الإجابة بنعم أو لا.

أما التصوَّر فهو إدراك المفرد، ويطلب بالاستفهام عن التصور إدراك المسند أو إدراك المسند إليه، ويكون الجواب بتعيين المسؤول عنه، ففي الإجابة عن سؤال: أجاء محمد أم أحمد؟ تكون الإجابة: محمد. أو أحمد .

والهمزة هي الحرف الوحيد الذي يسأل به عن التصديق والتصور بينما اختصت (هل) بالسؤال عن التصديق، أما باقي الأدوات فيسأل بها عن التصور فقط (االقزويني ص108).

أدوات الاستفهام ومعانيها:

فصّل السكاكي في كتابه المفتاح في أدوات الاستفهام شارحاً مايستفهم عنه بكلّ منها، وعلى خطاه سار القزويني مقتبساً منه ناقلاً عنه، ومعاني أدوات الاستفهام بحسب ما قاله السكاكي كالآتي:

ما: ويسأل بها عن الجنس، ما عندك؟، أي: أي أجناس الأشياء عندك وجوابه فرس أو كتاب أو طعام. ويسأل بها عن الوصف، كقولهم ما زيد وما عمرو؟ والجواب: الكريم أو الفاضل أو نحو ذلك.

من: للسؤال عن الجنس من ذوي العلم. تقول من إبليس؟ أي: أبشر هو أم جني أم ملك.

أيّ: للسؤال عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما، كقوله: (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا)(النمل38) أي الأنسي أم الجني.

كم: للسؤال عن العدد.

كيف: للسؤال عن الحال، فإذا قيل كيف زيد؟ فالجواب صحيح أوسقيم أونحوه.

أين : للسؤال عن المكان.

أنى: تستعمل بمعنى من أين كما في قوله تعالى: (قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا)(آل عمران 37) أي: من أين لك هذا الرزق؟ وتستعمل كذلك بمعنى كيف (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)(البقرة223) أي: كيف شئتم.

متى وأيان: للسؤال عن الزمان، وقيل تستخدم أيان في مواضع التفخيم كما في قوله تعالى: (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)(القيامة6) (السكاكي ص310-312) .

فهذا ملخص ما قاله السكاكي عن أدوات الاستفهام ومعانيها، وقد تحدث عبد القاهر الجرجاني الذي يُعدُّ واضع علم المعاني عن الاستفهام في معرض حديثه عن التقديم والتأخير، فبيَّن ما يكون من اختلاف في معنى

الاستفهام بحسب ما يلي الهمزة من أركان الجملة وهو مبحث في كتابه لطيف جَمُّ الفائدة فليُنظَر (عبد القاهر الجرجاني ص 119 وما بعدها)

العدول في الاستفهام (خروج الاستفهام عن معناه):

ذكر السكاكي أن الاستفهام يخرج عن معناه الأصلي "بمعونة قرائن الأحوال" (السكاكي ص 314) وقد عرض تلك الأغراض عرضاً يبيِّن غنى هذا الأسلوب بالدلالات، فممّا ذكره من أغراض:

1. الاستخفاف والتحقير كأن تقول: ماهذا ؟ ومن هذا؟ لغرض تحقيره وتنزيله منزلة من لا يعرف لحقارته.
2. الإنكار والتعجب والتوبيخ كأن تقول : كيف تؤذي أباك؟ تعني أنك تنكر فعله وتتعجب منه وتوبخه عليه.
3. التعجب كما في قوله تعالى على لسان سليمان (مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ)(النمل20)، أقول: وقد عدّ السيوطي الاستفهام ب(كيف) و(من) و(ما) و(أيُ) من صيغ التعجب التي لم تبوَّب في النحو وأورد عليه الأمثلة (السيوطي ج 3 ص53).
4. التقرير([3]): كقولك: كم أحلم عنك، وكقولك : ألم أأدب فلاناً؟ لمن كان عالماً به. وكقولك للتقرير بالفعل أضربت زيداً، وللتقرير بأنه الضارب أأنت ضربت زيداً؟
5. الاستبطاء : إذا قلت: كم دعوتك، ومتى تصلح شأني؟ تعني: أبطأتَ عليَّ في الإجابة.
6. التوبيخ كقوله تعالى: (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)(القصص62و74)
7. التنبيه على الضلال كقوله تعالى (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)(التكوير26). والقصد تنبيههم على ضلالهم.
8. التعجب والتعجيب([4]) والإنكار، يقال: أنّى تعتمد على خائن؟
9. الجحد والإنكار: كقول المنكر لقول اتهم بقوله : متى قلتُ هذا؟

هذا ، وزاد القزويني أغراضاً لحظَها هي:

1. الأمر: نحو قوله تعالى: (فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)(هود14)ونحو "فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ " أقول: وقد مدح ابن الأثير الأمر بالاستفهام، قال: "ومِنْ ألطف ما وجدته أنّك إذا خاطبت الممدوح أن تترك الخطاب بالأمر بأن تقول: افعل كذا وكذا، وتخرجه مخرج الاستفهام، وهذا الأسلوب حسن جداً وعليه مسحة من الجمال بل عليه الجمال كُلّه" (ابن الأثير ج2 ص311)
2. التهكم([5]):كما في قوله تعالى : (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)(هود87).
3. التهويل: كما في قوله تعالى : (الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ)(القارعة1-2) (السكاكي ص 314وما بعدها)

الاستفهام في شعر امرئ القيس:

استخدم الشاعر هذا الأسلوب في عدد من أبيات شعره متفنناً في استخدامه لأغراضه البلاغية المختلفة، ويلاحظ أن أكثر ما استخدمه من أدوات الاستفهام حرفي الهمزة وهل.

وقد استخدم الشاعر الاستفهام في مطالع قصائده، بعضٍ منها، فكان مناسباً لغرض النسيب الذي يأتي عادة في مطالع القصائد، فيلاحظ في هذه المطالع أثر هذا الأسلوب في تصوير المشاعر الوالهة المحملة بالقلق والحزن والاضطراب، ويظهر ذلك في مشاهد الوقوف على الأطلال ومخاطبة المحبوبة كما سنرى.

وسنتتبع استفهامات الشاعر مقسمين إيّاها باعتبار الأداة المستخدمة، ناظرين في فائدتها وقيمتها التعبيرية.

أولاً: الاستفهام بالهمزة:

جاء الاستفهام بالهمزة في حوالي ثلاثة عشر موضعاً، في معانٍ مختلفة سوى الاستفهام، والهمزة في الاستفهام هي أم الباب، ويفيد الاستفهام بها معانَي كثيرة كالتقرير والنفي والتعجب وغيرها.

1. الهمزة في التقرير والإثبات:

نجدها في المعلقة في قوله:

أغرك مني أن حبك قاتلي* وأنك مهما تأمر القلب يفْعلِ**

فالهمزة هنا للتقرير، صرّح بذلك الزوزني في شرح المعلقة (شرح الزوزني ص13 وشرح الحضرمي ص 46) نال هذا البيت قدراً من النقد من قدماء النقاد إذ قالوا معترضين على الاستفهام: إذا كان هذا لا يغر فما الذي يَغُر؟) (ابن قتيبة،الشعر والشعراء ص56). وقد اعتذر له ابن قتيبة وجعل معنى الاستفهام النهي قال : "أي فلا تغتري بهذا، فإني أملك نفسي وأصبرها عنك" (ابن قتيبة،الشعر والشعراء ص56).

وفي المقابل أكّد أبو هلال العسكري أن امرأ القيس أساء في معنى البيت ووهّن اعتذارات من اعتذر له (أبو هلال العسكري ص73).

وقد نظرتُ في البيت فوجدته أشبه بأن يكون من باب تجاهل العارف، وبما أن معناه التقرير فإنه يقول: (أنت مغترة بمعرفتك الواثقة أني لا أملك أن أخالفَ أمرَك)، وهذا مما يُشْعِر باعترافه بأن لها أن تغتر بذلك، وليس يقصد إنكاراً أو تعجُّباً كما أخذ عليه من أخذ. وقد جاء في نهاية الأرب أن تجاهل العارف : "هو سؤال المتكلم عمّا يعلُمه حقيقة تجاهلاً منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم أو ليدل على شدة التدله في الحب" (النويري ج7 ص102) فالشاعر إذن استعان بالاستفهام ليدل على شدة حُبِّه ووجده بالمحبوبة، مُخرِجاً قوله مخرج من يجهل سبب اغترارها وهو عالم به كل العلم.

هذا، واستعان الشاعر بالهمزة تقريراً لأداء معانٍ وصور جمالية فمنها قوله:

ألم تريني كُلّ ما جئتُ طارقاً * وجدتُبها طيباً وإنْ لَم تَطَيّبِ**

فمعنى التقرير واضح، إذ ليس من الراجح في العادة أن يدخل صاحباه معه على المحبوبة حتى يجدا ريحها، وإنّما مراده التغزل بمحبوبته وإثبات طيب الرائحة لها في كل حال.

ومنها قوله في اللامية على لسان محبوبته التي جاءها طارقاً في غفلة من رقبائها:

سموتُ إليها بعدما نامَ أهلُها * سموَّ حُبابِ الماءِ حالاً على حالِ**

فقالتْ سباكَ اللهُ إنّك فاضحي * ألستَ ترى السّمارَ والناسَ أحوالي؟**

قال الأنباري: "النفي إذا دخل على النفي صار إيجاباً" (الأنباري ص136) وقال الزركشي: "إن همزة الاستفهام إذا دخلت على موجب تقلبه إلى نفي، كقوله تعالى (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)(المائدة116) وإذا دخلت على النفي تقلبه إلى إيجاب" (الزركشي ج3 ص375)

فالمعنى تقريري إذن، أي: أنت ترى السمار والناس من حولي، فكيف تأتيني وأنت تراهم؟ وهو ينقل قولها الذي تستنكر فيه فعله وإنما يريد الشاعر بذلك تصوير جرأته واستهتاره واستخفافه بكل ما يحول بينه وبين نيل مآربه.

واستخدم الشاعر أسلوب الاستفهام في أداء المعاني الغزلية الوالهة المضطربة حيث امتزج التقرير بالمعنى الحقيقي للاستفهام مما ينتج روحاً من الشك والمُنى، تأمّلْ ذلك في قوله:

أتنكرتْ ليلى عَنِ الوصلِ؟ * ونأتْ ورثَّ معاقُدُ الحَبلِ**

يقول: إنّ ليلى نأتك وقطعت حبل ودك وخانت عهدك. ولكن الاستفهام يخرج هذا التقرير بنوع من التوهم والمنى الكاذبة بألّا يكون الأمر كذلك، وبهذا يتضح روح الوله بأكثر مما لو كان البيت بأسلوبٍ تقريري مباشر.

وانظر قوله :

تروحُ من الحيِّ أم تبتكِرْ * وماذا عليكَ بأنْ تنتظرْ**

أمرخٌ خيامُهم أم عُشَر * أم القلبُ في إثرِهم منحدِرْ**

هذه الأبيات تأتي في قصيدة ذات خصوصية تمازجت فيها فرحة انتصار الشاعر على عَدُوِّه مع فخره بنفسه([6]) ومع الفخر تحضر دائماً المحبوبة، فهو يقول في مطلع القصيدة

فلا وأبيكِ ابنةَ العامريِّ * لا يزعُم القومُ أنّي أفِرّ**

وفي ظل هذا الجو المشحون بالمشاعر الذي أنتج قصيدة **مقلوبة المطلع** إذ بدأت بذكر الانتصار والحرب والفخر ثم عادت إلى الغزل والنسيب يظهر الاضطراب في هذه الاستفهامات المتتالية من قوله (تروح من الحي أم تبتكر) وهذا البيت كما قال الحضرمي استفهام حذفت منه الهمزة لدلالة (أم) عليها (شرح الحضرمي ص 218)

وسؤاله : أمرخ خيامهم أم عشر مقصودٌ به كما قال الشرَّاح : (أأنجدوا أم نزلوا الغور). ولكنه لا يبدو استفهاماً حقيقياً عن وجهتهم، بل هو محض اضطراب وتولُّه يؤكد ذلك قوله التالي: أم القلب في إثرهم منحدر، وكأنه يقول ليس الأمر أن أنجدوا أو غاروا ولكنك منحدر القلب في إثرهم تتبعهم روحك وإن جهلت وجهتهم ومنزلهم. ولا يخفى ما في الأبيات من ظلال لوم وتقريع لنفسه على اشتغاله بأمر رحيل المحبوبة مع ما هو فيه من أمر عظيم.

ويفخر الشاعر بنفسه ذاكراً كثرة تسفاره وشدة صبره على الطرق الطويلة التي سلكها، قال:

ألم أُنْضِ الَمطيَّ بكُلِّ خَرْقٍ * أَقَلَّ الطُّولِ، لمَّاعِ السَّرابِ**

والاستفهام تقرير وتأكيد لإنضائه المطي بالطرق الطويلة الممحِلة.

الهمزة في النفي والإنكار:

ذكر ابن جني أن همزة التقرير إن دخلت على الإيجاب عاد نفياً وإذا لحقت لفظ النفي عاد إيجاباً وضرب الـ مثل بقوله تعالى: (أأنت قلت...) أي: ما قلت، ودخلت على النفي في قوله تعالى (أَلَسْتُ بِرَبِّكُم) أي : أنا كذلك(ابن جنّي ج3 ص269). وترى الباحثة أن ذلك لا يضطرد وإن كان يكثر، ومن رأى اضطراده فسّر قول امرئ القيس (أغرّك مني) على النفي لدخول الهمزة على لفظ موجب: ؟ فيكون معناه: لا تغتري بذلك فأنا قادر علي أن أملك نفسي. وقد مرَّ هذا، وقد أثبتت الباحثة رأيها في هذا البيت آنفاً، وأنه من التقرير وليس من النفي، ولذا تؤكد الباحثة أن قول ابن جني يكثُر ولا يضطرد.

ودخلت همزة الاستفهام على المثبت من القول في شعر امرئ القيس فأفادت معانٍ في سياقات القصائد المختلفة، فمنها قوله في الفخر:

يغط غطيط البَكرِ شُدَّ خناقُه * ليقتلني والمرءُ ليس بقتّال**

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي * ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوال**

فهو يقول مفاخراً: لا يقدر بعلك على قتلي ومضاجعي السيوف والرماح، فهو يستعين بالاستفهام على تأكيد أن ذلك لا يكون، ليس لضعف منافسه كما يوهم قوله: (والمرء ليس بقتال) بل لقوّتِه هو، وأنه ليس ممن يُغلب

ويُقهر، وهذا يستفاد من دخول همزة الاستفهام على الفعل (أيقتلني) ولو أراد أن يقول: ما أنت من يقتلني لقال: أأنت تقتلني؟ هذا ما أكده الجرجاني في شرح اختلاف معنى الاستفهام بالهمزة بحسب ما يلي الهمزة([7]) (عبد القاهر الجرجاني ص119). وكان هذا ليضعف المعنى من حيث إنه يجعل عدم قتله راجع لضعف المنافس لا لقوّته هو.

وللعلامة عبد الله الطيب تعليق على هذه الأبيات رأي فيها أن الأبيات ظاهرها الفخر وباطنها ذعر وهرب ذريع. (عبد الله الطيب ج3 ص 1220)

وما يهمنا هنا أثر الاستفهام في تقوية معنى الفخر، ولك أن تتخيل أن لو كان جاء بهذا المعنى مقرراً كأن يقول: (لا يقتلني والمشرفي مضاجعي) كم كان سيضعف هذا المعنى ويخفُتُ بريقُه.

ويظهر أسلوب النفي في سياق إظهار الشاعر الحزنَ والتعجبَ من تقلبات الأيام به، وذلك بعد حادث مقتل والده، ولما لاقاه من الخذلان من القبائل التي كان يرجو نصرها حتى خرج هائماً على وجهه يرجو النصر عند قيصر، وقد تغيَّر شعره كثيراً في هذه الفترة، فكثر فيه التأمل والحزن والتعجب من تقلب الدهر والتحسر على أيام العز والملك. انظر إلى قوله:

أبعد الحارثِ الملْكِ بن عمرٍو * وبعد الخَيرِ حُجرٍ ذي القباب**

أرجّي من صروفِ الدهرِ لِـ ينا * ولم تَـغفلْ عن الصُمِّ الهضابِ**

يذكر أجداده وآباءه أهل الملك والسطوة، فيقول ليس بعد ما فعله الدهر بهم من زوال ملكهم آمنُ الدهرَ أو أرجو منه ليناً وقد تطالُ نوائبُه صُمّ الهضاب فتدكّها.

إن الاستفهام هنا يفيد أن الشاعر ينفي أن يكون مم ن يأمنُ ويركنُ للدهر بعد ما رأى منه، ومثلُ ذلك قوله يذكُر ما آل إليه من هوانٍ وضَيْعة

أبعد الحارثِ الملْكِ بنِ عمرٍو * له ملكُ العراقِ إلى عُمانِ**

مجاورةً بنى شَمْجَى بن جرمٍ * هوانا؟ ما اتيحَ من الهوان**

ويمنحها بني شَمْجَى بن جرمٍ * معيزَهُم. حنانَك ذا الحنان**

يقول: أبعد ملك أجدادك تجاور بني شمجى من شدة ما نزل بك من الهوان، قال السكري: "أبعد الملك والقدرة صارت بنو شمجى تمنحهم المعزى؟" (شرح السكري ص 581) وقال الحضرمي معلقاً على قوله (حنانك ذا الحنان) :"وفي هذا الكلام معنى التعجب" (شرح الحضرمي ص 213). يعني: عجبا لما نزل بنا من هوان إذ صارت بني شمجى تمنحنى المعزى.

فها هو الاستفهام الإنكاري التعجبي يسعفه أحسن إسعاف في إظهار الحزن على مآل حاله والتعجب من تقلب الدهر به، ولا يخفى بعدُ ما في معنى التعجب من فسحة تأمَّل، فكأنه في استفهامه التعجبي هذا يشرك غيره في تأمُّله إذ الأصل في الاستفهام أنه استخبار فكأنه يخاطب غيره أنْ تأمّلوا.

الهمزة في معنى الإنكار والتوبيخ:

وكما اعتدنا من الشاعر ومن غيره في مقامات النسيب أنه يجرُد من نفسه مخاطباً يخاطبه كما في قوله:

تطاول ليلك بالأَثْمِد * ونام الخليُّ ولم ترقد([8])**

وهوفي تجريده هذا يـُقرِّع نفسه أحياناً ويلومها على ما تظهره في الحب من الضعف والجزع، فمن ذلك قوله:

أمن ذكر نبهانية حلّ أهلها * بجزع الملا عيناك تبتدران؟**

قال البطليوسي: "السؤال للّوم والتقريع، لأنه إنما يطلب معالي الأمور" (البطليوسي ص219) ويقول السكري: "قال: أمثلك في جلالك تبكي من ذكر نبهانية؟" (شرح السكري ص 506)

ولعل توبيخه نفسه على العشق وحب النساء لم يبدأ في الظهور في شعره إلا بعد أن بدأ في طلب ثأره وجعله همَّه وطلبته، وإلاّ فإنّ امرأ القيس ما كان يدأب هذا الدأب في شعره الذي قاله قبل مقتل أبيه كالمعلقة.

ولعل الاستفهام التوبيخي يظهر كذلك في قوله:

أمن ذكر سلمى أن نأتك تنوصُ* فتقصر عنها خطوة وتبوصُ**

وتنوص أي: تتحرك لها وتأمل في إدراكها وقد فاتتك فلا يمكنك أن تدركها. وهذا يشبه سابقه في معنى الإنكار والتوبيخ.

ثانياً: الاستفهام بـ(هل) :

(هل) للتمني:

تستخدم (هل) في التمني كما صرّح به القزويني وغيره (القزويني ص 107) وهو الغرض الأول الذي استخدم فيه امرؤ القيس هذا الحرف في الاستفهام. وقد ذكر القزويني النكتة في التمني ب(هل) وهي أن المتمنِّي ب(هل) يبرز المتمنَّى في صورة ما هو مطموع فيه. فبالسؤال يعطي احتمال أن تكون الإجابة إيجاباً وبذا يكون المتمنَّى كأنه ممكن (القزويني ص107) وقد جاءت (هل) عند امرئ القيس للتمني كثيراً، فمنها قوله:

تبصّر خليلي هلْ ترى من ظعائنٍ* سوالِكِ نقباً بين حَزْمَيْ شَعَبْعَبِ؟**

وقد يقف القارئ عند ندائه خليله ما مغزاه؟ إن كان هو نفسه يقف عند ذات المشهد، والمعلوم أن شعراء الجاهلية قد اعتادوا أن يجردوا صحبةً في أسفارهم، وليس ذلك من فراغ، فما كانوا يسافرون في فلواتهم الممتدة وصحاريهم الخطرة آحاداً، بل كان الفارس منهم يصطحب رفيقه أو خادمه أو مولاه، وربما كانوا رفيقين، قال البطليوسي : "وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة" (شرح البطليوسي ص 69).

وقد بدأ امرؤ القيس نفسُه معلقتَه بمخاطبة رفيقيه في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وبدأ كذلك بخطاب الرفاق في مطلعه القائل:

خليليَّ مُرَّا بي على أمِّ جندب * أُقَضِّ لبانات الفؤاد المعذَّب**

وترى الباحثة أن الاستعانة بالرفاق في مقام النسيب يشير إلى أن الشاعر يُعبر بذلك عن شدة دنفه وإظهار ما فعله به الحب والشوق من ضعف جسدي ونحول، إضافة إلى اضطراب عقله فهو عاجز عن الإبصار والتبصُّر بسبب الدموع التي تملأ عينيه وبسبب الضعف والاعتلال.

وعلى هذا نفهم الاستفهام في البيت فهو تمنِّي المدنف بأن يكون الظعائن ما زلن في مرمى البصر، ولّما كان عاجزاً عن الإبصار بنفسه استعان بصاحبيه لما قدَّمنا من الأسباب.

ويقول الشاعر في قصيدته التي مطلعها:

سما لكَ شوقٌ بعدَ ما كانَ أقصرا

وهي القصيدة التي قالها حال توجهه إلى بلاد الروم طالباً عون قيصر في أخذ ثأره([9]). وهي قصيدة حزينة مليئة بالشجن والحسرة، وتذكر الديار وأحوال الأيّام الصالحات. قال فيها بعد ذكره أيّامه المليئة باللهو والفتك صحبةَ رفاقه ورفيقاته:

فهلْ أنا ماشٍ بينَ شوطٍ وحيةٍ * وهل أنا لاقٍ حيَّ قيس بن شمّرا؟**

تبصرْ خليلي هلْ ترى ضوءَ بارقٍ * يضيءُ الدُّجي بالليل عن سروِ حِميرا؟**

فيذكر أولاً منازل طيَّ في شوط وحيّة حيث كان ينزل في قيس بن شمّر الذين أكرموا وفادته، ثّم يذكر في البيت الثاني منازل أهله في اليمن في أرض حمير ويستعين برفاقه على عادته في حال الحزن والضعف، وهو في البيتين يستخدم الاستفهام للتعبير عن أمانيه البعيدة في العودة إلى تلك الديار التي رحبت به أو ديار أهله في سرو حمير حيث أولياؤه وأنصاره .

والملاحظ أنه استخدم (هل) فأسعفته في إظهار قوَّة التمني في حال الغربة والضعف والخذلان. ومثله في قوله:

فهل يسلينّ الهمَّ عنك شملة * مداخلة صُمَّ العظام أصوص**

ففي هذا البيت يصف ناقته بالشدة والقوة وقد سبق هذا البيت ذكره حبيبته التي وصفها إذ تراءت له يوم أن عزم على الرحيل :

تراءت لنا يوماً بسفح عنيزة * وقد حان منَّا رحلة فقلوص**

وبعد وصفه محبوبته التفت إلى ضمير المخاطب، فخاطب نفسه بقوله (فهل يسلين الهم عنك..) متمنياً أن يكون في ارتحاله على ناقته تلك ما يسليه وينسيه أمر هذه المحبوبة، وكان هذا التمني خير مدخل وانتقال إلى وصف ناقته ورحلته عليها.

وبينما يظهر التمني واضحاً في ما قدمناه من أبيات؛ يختفي في زيَّ استفهام حقيقي في قوله في مطلع قصيدته السينيه:

أماويَّ هل لي عندكم من مُعرِّس * أم الصرم تختارين بالوصل نيأس**

أبيني لنا إن الصريمة راحة * من الشك ذي المخلوجة المتلبس**

إنه يسأل محبوبته: هل له "من وصل يدعو إلى التعريس والإقامة" (شرح الأعلم الشنتمري ص 101) وهو يرجوها أن تبين له فإن كل صرماً وقطيعة ارتاحت نفسه باليأس فلا يبقى مؤملاً طامعاً في وصلها.

فهاهو إذن التمني يطل من أثناء استفهامه الذي يبدو حقيقياً في قوله "أبيني لنا" في حين الحقيقة أنه يتمنى أن تجيبه وتدعوه إلى التعريس والمبيت عندها.

وكثيراً ما يتمنى الشعراء اليأس من وصل المحبوب لأنه يريح النفس من الأمل في وصله ، إذ الأمل يجعل النفس في حال ترقب وانتظار لحدوث المأمول وهو لا يحدث ولا يكون، فتظل النفس معذبة بأملها وانتظارها ، ومن ذلك قول كثير عزة:

فأصبحتُ ذا نفسَينِ نفسٌ مريضةٌ * من اليأسِ ما ينفكُّ هِمَ يعودُها**

ونفسٌ إذا ما كنتُ وحدي تقطّعتْ * كما انسلّ من ذاتِ النِّظامِ فريدُها**

فلم تُبدِ لي يأساً ففي اليأسِ راحةٌ * ولم تبدِ لي جوداً فينفعُ جودُها**

(الأصفهاني ج7 ص102)

وبالعودة إلى امرئ القيس فإنه استخدم الاستفهام حقيقي المظهر بطلبه جواباً منها إذ طلب الجواب يوهم أنّ الاستفهام حقيقي، ولكن التمني فيه ظاهر، ولو لم يتمنّ وصلها ما وقف عند بابها.

وتشير الباحثة إلى أن الشاعر الذي استخدم (هل) في تمنيه كثيراً لم يستخدم (ليت) وهي أداة التمني الأصلية في اللغة في التمني أبداً، وإنما استخدمها في التعجب في موضعين هما حيث يقول:

ألا ليتَ شعرِي كيفَ حادثُ أهلِها * وكيفَ تُراعِي وصلة المتغيّبِ**

وقوله:

ليتَ شعري ولليتِ نبوةٌ * أينَ صارَ الروحُ إذ بانَ الجَسَدْ**

بينما المرءُ شهابٌ ثاقبٌ * ضربَ الدَّهرُ سناهُ فخَمَدْ**

(ليت شعري) تعني ليتني أشعر وأعلم ، جاء في أدب الكاتب: " قال سيبويه: أصله (فعلة) مثل دِربه وفِطنة فحذفت الهاء" (ابن قتيبة. أدب الكتب ص49). وتجد الإشارة إلى أنّ تمني العلم هنا ليس إلاّ تعجباً، قال الشاعر:

فقلتُ من التعجب ليت شعري* أأيقاظ أمية أم نيام**

فلم يستخدم الشاعر (ليت) في معنى التمني وأنّت (هل) ذلك المعنى خير أداء.

(هل) للنفي:

تبدو (هل) مسعفة للشاعر في التعبير عن حزنه وتردد الأمنيات الخاسرة وخيبات الأمل في صدره، فهو يستخدمها كذلك في النفي حيث يكون النفي متعلقاً بإظهار اليأس من رؤية المحبوبة وما يسببه ذلك من إغراقه في الأحزان، فمنه قوله ضمن أوائل أبيات المعلقة التي يقف في مطلعها على أطلال منازل المحبوبة

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل**

فهو يقف ويستوقف صاحبيه على الأطلال غزير الدمع كأنه ناقف حنظل حتى قال أصحابه من شدة ما رأوه من حزنه: (لا تهلك أسى وتجمل..!)

ولكنه رد قائلاً:

وإن شفائي عبرة مهراقة * وهل عند رسم دارس من مُعوِّل؟**

ذكر البطليوسي أن في (معوّل) مذهبان الأول أنها من الإعوال أي البكاء، والثاني أنها من التعويل أي الاعتماد، وذكر بأن الثاني هو الأحق بالمعنى وعليه نسير في تفسير البيت (شرح البطليوسي ص73) ومعنى البيت حسب ما جاء عند البطليوسي "إنّما راحتي في البكاء فما اتكالي في شفاء غليلي على رسم دارس لا غناء عنده، فسبيلي أن أقبل على البكاء ولا أعوّل على رسم الدار في دفع حزني" (شرح البطليوسي ص73)

فمعنى الاستفهام إذن أنه لا معوّل على رسم الدار، وأنه "لا طائل من البكاء في هذا الموضع لأنه لا يرد حبيباً ولا يجري على صاحبه خيراً" (شرح الزوزني ص7) هذا مع ملاحظة أنه قد وقف على أطلاله فعلاً فهاجت بكاءه حتى كاد يهلك أسىً، وبذا نرى استفهامه يحمل معانٍ عدة من الحزن ولوم النفس على الإتيان بما لا فائدة منه وهو الوقوف على الأطلال، كما يظهر في هذا الأسلوب المستخدم اعتذارٌ للخلان المرافقين له باعترافه بأن وقوفه هذا لا فائدة منه ولا معوّل عليه.

وعبَّر الشاعر بـ (هل) عن النفي أيضاً في مطلع لاميته حيث يقول:

ألا عِم صباحاً أيها الطلل البالي * وهل يعِمَنْ من كان في العُصُرِ الخالي**

وهل يعِمَنْ إلاّ سعيدٌ مخلّدٌ * قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوجالِ**

إنه يحيي طلل الديار البالي داعياً له بالنعمة على الطريقة الجاهليين في التحية " قال الأصمعي والفراء إنما هو دعاء بالنعيم والأهل، وقال أبو عمرو بن العلاء هو دعاء بالسقيا" (البغدادي ج1 ص77)

ثم يستدرك فيقول: وهل ينعم من تفرَّق أهله وخلا من بعدهم؟ قال البغدادي:" وقوله: وهل يعمن استفهام إنكاري." (البغدادي ج1 ص77) ، والمعنى: لا نُعمى لك وأنت في حال الخلوّ من أهلك وقد أبلاك طول الزمان وأتي على جدّتك، إنه يشخص الطلل مناجياً إياه، متخيلاً حزنه لبلاه وذهاب أهله ، ولذا يأتي البيت الثاني فيتساءل ملتفتاً إلى نفسه

وهل يـَعِمَنْ إلا سعيدٌ مخلّدٌ * قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوجالِ**

فالشاعر هنا ينظر لنفسه قائلاً إنه لا نعمى إلاّ لمن لا عقل له، قال الجاحظ: "قال الأصمعي: هو كقولهم استراح من لاعقل له " (الجاحظ ج3 ص490) فهو لا يحس بهموم الدنيا ولا بآلام الفراق والشوق. ويرى العلامة عبد الله الطيب : "إن امرأ القيس لم يعنِ بالطلل إلاّ نفسه وذكرياته ويدخل فيها عهد الطلل وأهله" (عبد الله الطيب ج3 ص1209)

وبذا تطالعنا (هل) وقد أدّت معنى النفي المقصود منه إظهار الحزن والألم، وترى الباحثة أن هناك تقارباً بين معنى التمني ومعنى النفي في هذا المقام وبهذه الأداة، فالتمني كما هو معروف يكون لشيء لا يطمع المتمنى في حدوثه، فما هو متمنًّى لا يكون، فهو منفيٌّ وقوعُه، والمنفى وقوعه هو أمر متمنى، ولذا كانت (هل) أشد وقعاً في التعبير عن المعنيين لأنها تحمل في داخلها كلا المعنيين : تمني الوجود للمنفي، ونفي الوجود للمتمنَّى.

(هل) للتعجب والتقرير:

جاءت (هل) تقريرية في قول الشاعر:

أغادى الصبوح عند هرٍّ وفرتني* وليدا ، وهل أفنى شبابيَ غيُر هر؟**

قال البطليوسي: "كان يغادي الصبوح عند هر وهي التي كان يشبب بها فزعم أنه يعشقها طفلا وكهلاً وهام بها شاباً وشيخاً إلى أن أفنى شبابه" (شرح البطليوسي ص236) فالمعنى إذن: ما أفنى شبابي أحدٌ إلاّ هرّ، ولم ترِد عنده (هل) في معنى التقرير إلاّ في هذا البيت، وأما استخدامه إيّاها في التعجب فجاء في قوله:

ألا هل أتاها والحوادث جمة * بأن امرأ القيس بن تملِك بيقرا؟**

جاء في اللسان: " بيقر الرجل : هاجر من أرض إلى أرض، وبيقر: خرج إلى حيث لا يدري، وبيقر نزل الحضر،...خصَّ بعضهم به الطرق، وقول امرئ القيس يحتمل كل ذلك" (ابن منظور ج4 ص73).

يذكر الشاعر محبوبته سلمى ذاكراً أن الحوادث اضطرته إلى السفر والخروج هائماً على وجهه، متسائلاً متعجباً هل أتى سلمى خبره وهل علمت بخروجه وهجرته.

إذن فقد استخدم الشاعر (هل) الاستفهامية في عدة أغراض إلاّ الاستفهام الحقيقي، وكانت مناسبةً في مقامات إظهار الحزن والحيرة، ولا يخفى مافي الاستفهام في هذه المقامات من ارتباط بالحيرة والاضطراب وقِلّة اليقين.

ثالثاً- أدوات الاستفهام الأخرى:

كلّ أداة للاستفهام سوى هل والهمزة إنّما اختصت بالاستفهام عن التصور، وجاءت هذه الأدوات في معانٍ عدة، فمنها أنه استفهم بـ (لمن) في مطلعين في قصيدتين مختلفتين وذلك قوله:

لِمَنْ طللٌ أبصرتُهُ فشجاني* كخطِّ زبورٍ في عَسيبٍ يماني**

وقوله:

لِمَن الديارُ غشيتُها بسُحامِ* فَعَايتْنِ فُهْضبِ ذي الأقدامِ**

فذلك في سياق ذكر الديار، والواضح أن الاستفهام إنما هو لمن هذه الديار؟ هل هي حقا ديار المحبوبة التي أعرفها أم إنني ضللت طريقي إلى ديار سواها، هذه دلالة الاستفهام كما تراه الباحثة، وبمثله قال البطليوسي عن البيت الثاني إذ قال :" إنه لما وقف على الديار تنكرت عليه لتغيير الرياح والأمطار رسومها، فلذلك قال : لمن الديار؟ كأنه سأل عنها سؤال مستفهم مسترشد ليعلم علم ذلك " (شرح البطليوسي ص273)

وجاء الاستفهام في معنى التعجب في قول الشاعر في بائية أم جندب

ألا ليتَ شعري كيفَ حادثُ أهلِها * وكيفَ تُراعي وُصلة المُتغيِّبِ**

أقامتْ على ما بينَنا مِنْ مودّة * أميمةُ أم صارتْ لقولِ المُخبِّبِ**

يتساءل الشاعر متعجباً هل يا ترى لا تزال محبوبته على عهده ترعى غيبته وتقوم على مودته أم صارت إلى قول المُخبب وهو المُفسد الذي يُغيِّرها عن عهدها وحبها له.

في البيتين استفهامان الأول بـ (كيف) والثاني بالهمزة وقد تظاهرا في أداء معنى التعجب الحائر، وهنا يظهر دور الاستفهام جلياً في أداء معنى الحَيرة والتردد والتعجب الناتج عن قلة المعرفة بحال المحبوب وعدم التأكد من موقفه ومشاعره تجاه الشاعر.

وقال أمرؤ القيس عندما أدرك بني أسد وقتل فيهم قتلا ذريعا في أول طلبه لثأر أبيه:

قولا لدودانَ عبيدِ العصا * ما غرّكم بالأسدِ الباسلِ**

قد قرّت العينانِ من وائلٍ * ومن بني عمروٍ ومن كاهلِ**

ودودان من أسد، وجاء في الخزانة أنهم سُموا عبيد العصا لأن أبا امرئ القيس كان إذا غضب على أحدهم أمر فضرب بالعصا (البغدادي ج8 ص357).

ويقصد الشاعر بالأسد الباسل والده الذي قتلته بنو أسد، والواضح أن معنى الاستفهام ب(ما): أي شيء غركم به فقتموه؟ قال الحضرمي: "ما استفهام، ومن صفتها رفعٌ بالابتداء، وغركم خبرها، والتقدير: أي شيء غركم" (شرح الحضرمي ص199).

وإن جاز لنا فنشبه هذا القول بقوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟)(الانفطار6) وما غرك أي ما:"الذي خدعك وسول لك الباطل... يقال: غره بفلان إذا أَمِنه المحذور من جهته مع أنه غير مأمون" (الرازي ج31ص73) وهذا الأسلوب يحمل معنى التقريع إذ لا يقال إلا في مقام القدرة على العاصي و النيل منه، فهذا التعبير مما يسأل به الإنسان يوم القيامة، فلا جرم كان فيه التقريع والتوبيخ. إذن فإن ذات التعبير استُخدم عند الشاعر توبيخا لبني أسد بعد وقعته بهم لحملهم على التنُّم على ما كان منهم. فالمعنى بالاستفهام أشد وقعا منه لو جاء في جملة تقريرية كأن يقول: ما كان لكم أن تغتروا. أو: انظروا إلى عواقب أفعالكم. لأن الاستفهام أدعى لتنديمهم على ما فعلوا لأنه يدفعهم للتفكير في سوء تقديرهم الذي جعلم يأمنون عقوبة غير مأمونة.

و استفهم الشاعر ب(أين) وذلك في قوله:

من آلِ ليلى وأينَ ليلى * وخيرُ ما رُمتَ لا يـُنالُ**

عد الثعالبي الشطر الأخير من البيت من جوامع الكلم التي جاءت في شعر الشاعر (الثعالبي ص137) كما عد ابن قتيبة البيت من جيد شعره (ابن قتيبة، الشعر والشعراء ص42) وواضح أن الاستفهام فيها يدل على الاستبعاد، وسياق البيت هو قوله من مطلع القصيدة:

عيناك دمعُهما سجالُ * كأن شأنيـْهما أوشالُ**

أو جدولٌ في ظلالِ نخلٍ * للماء من تحتِه مجالُ**

من آل ليلى...

فالشاعر يخاطب نفسه في مطلع غزلي ذاكرا حزنه وغزارة دمعه أسفا على فراق المحبوبة التي ظعنت مع أهلها، وفي البيت بالإضافة إلى الاستفهام ترديد ذكر المحبوبة تلذذا بذكره أو ربما تفجعا وعويلا بعد ارتحالها وهو ما يناسب الاستفهام الذي يفهم منه استبعاده للمكان الذي رحلت إليه المحبوبة وهو مكان ناء فكيف الوصول إليه؟ والبعد ربما لا يكون بعدا حقيقيا ولكن غيابها عن الحي بأي شكل هو ابتعاد ونأي في نظره.

واستخدم الشاعر الاستفهام ب(أين) في قوله:

ليتَ شعري ولليتٍ نبوةٌ * أين صارَ الروحُ إذ بانَ الجسدْ؟**

وسبق أن ذكرنا أن معنى البيت التعجب، وينتظم الاستفهام في المعنى العام للبيت فيفيد التعجب أيضا. وسياق الأبيات التأمل، وترى الباحثة أنّ لامرئ القيس في قصائده التي قالها بعد أن خذلته العرب وذهب يلتمس النُصرة عند قيصر تأملاتٌ وضربٌ من الحكمة، والراجح أن هذه القصيدة منها، يقول:

من خطوبٍ تركتني قلِقا * قلقَ المحورِ بالكـــتّ المَـسدْ**

بيـَتـّني بهمومٍ شـُـــرّعٍ * خَلَستْ نومي وأَحْذتني السُّهُد**

ليت شعــري وللــيتٍ نبوةٌ * أين صار الروح إذْ بان الجسد؟**

بينما المرءُ شهـابٌ ثاقبٌ * ضـربَ الدّهـرُ سنـاهُ فخمـدْ**

ففي هذه الأبيات القلقة الحائرة جاء الاستفهام، إذ التساؤل قرين الحيرة وظهير التعجب الُمتأمِّل.

خاتمة:

نظر هذا البحث في الاستفهام في شعر امرئ القيس متأملاً في محاسنه مومئاً إلى حسن أدائه للمعاني التي قصدها الشاعر، وبدت طاقة هذا الاسلوب في العدول عن معناه الصلي والانزياح إلى معانٍ إضافية أُخر بارزة واضحة، والاستفهام من الأساليب الرحبة الأداء وفي تأملها في مختلف النصوص فائدة ومتعة.

نتائج البحث:

1. استخدم امرؤ القيس أسلوب الاستفهام بأدواته المختلفة في معانٍ شتى ولم يستخدمه أبدا في معناه االحقيقي.
2. مما سبق يتبين لنا أنّ لهذا الأسلوب طاقة عدولية كبيرة، استفاد منها الشاعر في تجسيد معان كثيرة كالوله والتمني والتعجب والحيرة. وهذه الطاقة ترجع إلى طبيعة الاستفهام المتعلقة بالجهل وعدم اليقين الأمر الذي جعله مناسبا لتصوير مشاعر الَحيرة والاضطراب.
3. أكثر أدوات الاستفهان استخداما عند الشاعر الهمزة وهل حيث استخدم الهمزة في التقرير والإثبات، والنفي والإنكار، والتوبيخ والاستنكار، واستخدم (هل) للنفي، والتمني، والتعجب، والتقرير.

4. استخدم الشاعر (هل) للتمني غير مرة في حين لم يستخدم (ليت) الموضوعة أصلا للتمني في معناها، بل استخدمها في معنى التعجب.ص2
5. ومن الأدوات الأخرى استخدم كيف ومن وما وأين.

الهوامش :-

1. عبد السلام بن عبد السلام المسدّي، المولود في صفاقص 1945م (أكاديمي وكاتب ودبلوماسي ووزير التعليم العالي في تونس. من أهم الباحثين في مجال اللسانيات واللغة. له مؤلفات عديدة منها: الأسلوب والأسلوبية، التفكير اللساني في الحضارة العربية، النقد والحداثة.(الانترنت، موقع المعرفة: www.marefa.org/index.php/**عبد_السلام_المسدي** 29-8-2016/)
2. استاذ بجامعة كولومبيا أهم جامعات نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، اختص بالدراسات الأسلوبية منذ أربعينات القرن الماضي، أبرز مؤلفاته : محاولات في الأسلوبية البنيوية.(المسدي ص247)
3. والتقرير يعني طلب الإقرار بالشيء، فقولك: كم أحلم عنك. يقال لمن تريد أن تحضر في ذهنه الإقرار بكثرة حلمك عنه.
4. والفرق بين التعجب والتعجيب أن التعجب: أن تتعجب من الأمر، والتعجيب :أن تدعو غيرك للتعجب منه.
5. التهكم: السخرية.
6. ومناسبة القصيدة ان ثعلبة بن مالك حسد امرئ القيس على منزلته وملكه في نجد فخرج لحربه، وخرج له امرؤ القيس وأمر جنده بالكمون في قيعة من الأرض، وتعرض لجيش ثعلبة فتبعوه حتي استدرجهم إلى حيث يكمن جنوده، فشدوا عليهم وهزموهم شر هزيمة وأسر امرؤ القيس ثعلبة ثم قتله صبرا.(ديوان امرئ القيس ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعاف، القاهرة ط4.)
7. يؤكد الجرجاني ان الهمزة يليها المستفهم عنه. فإن قلت: أأنت فعلت هذا؟ كان السؤال عن الفاعل. أهو أم غيره من الناس .وكان الفعل ثابت الوقوع والتساؤل حول الفاعل. أما إن قلت: أفعلت هذا؟ كان السؤال عن الفعل نفسه وقع أم لم يقع. وعندما يكون التعجب أو الاستنكار هوالمقصود يكون المعني في حال كانت الجملة: أأنت تقتلني: أي لا يستطيع مثلك قتلي. أما لو قال: أتقتلني كما في القصيدة فالاستنكار منصب على الفعل ، أي لا يمكن قتلي، لا يقتلني أحد لشدة بأسي وقوتي، وهذا أبلغ في نسبة القوة للشاعر من المعنى الأول لأنه يجعل علة عدم القتل قوة الشاعر لا ضعف الآخر.
8. الأثمد: موضع. والخلي: الخالي من الهموم.(ديوان امرئ القيس ت محمد أبو الفضل إبراهيم. ص185)
9. ومعلوم أن امرأ القيس توجه بعد مقتل أبيه على يد قبيلته إلى قيصر ليستعين به على استرداد ملك أبيه ولكنه عاد بحلة مسمومة دسها له قيصر أدت إلى وفاته بنواحي أنقرة بتركيا.
10. الشملة: الناقة الخفيفة السريعة. والأصوص: الناقة التي لم تلقح ولم تحمل فهو أشد لها.(ديوان امرئ القيس ت محمد أبو الفضل إبراهيم ص178)
11. هذا ما يدعونه بالترخيم. والأصل أماوية، ويحذف الحرف الأخير ترخيما مع الاحتفاظ بحركة الحرف قبل الأخير، أو إعرابه بحسب موقعه من الجملة.

12. المُعرّس: هو نزول المسافر ساعة من الليل ليستريح ثم يرحل، والصرم: القطع والهجر. والمعنى هل تصلينا فننزل أم عزم على قطعنا وصرمنا فنيأس؟ والشك ذي المخلوجة: أي المختلجة حقيقته. المتلبس: المختلط المشكل الذي يتنازع فيه.(ديوان امرئ القيس ت محمد أبوالفضل)
13. البيت لنصر بن سيار في البيان والتبيين ص97.
14. الزبور: الكتاب. أي: قد درست وخفيت آثاره فما يرى منه إلا مثلُ الكتاب في الخفاء. وكان أهل اليمن يكتبون في عسيب النخل عهودهم وصكوكهم. (ديوان امرئ القيس ت مجمد أبو الفضل ص85)
15. سحام، وعمايتين وذي الأقدام كلها مواضع.
16. المحور: العود الذي يعترض في فلك البكرة. والكت المسد أراد: المسد الكت، والمسد الحبل والكت الصوت. هذا قول السكري (شرح السكري ص664) ولا يبدو شرحه هذا واضحا.
17. أحذنتني: وهبتني.

المراجع:

1. ابن منظور: محمد بن مكرم الافريقي المصري، ت 711هـ، لسان العرب ، ط1، دار صادر، بيروت.
2. الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية.
3. المسدي: عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، ط3. الدار العربية للكتاب.
4. ابن الأثير: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبدالكريم الموصلي ت 63هـ ، (1995م) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
5. ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ت 282هـ، أو 290هـ. (1903م.)الشعر والشعراء طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل.
6. ابن رشيق: أبو على الحسن القيرواني الأزدي (المتوفى: 463 هـ)، (1981م) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت،.
7. الجرجاني: أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن ت 471هـ (1989م)، ، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ط2، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
8. الأنباري: كمال الدين أبوالبركات عبدالرحمن بن محمد بن أبي سعيد ت 328هـ. (1995م):أسرار العربية، تحقيق فخر الدين قدارة، ط1، ، دار الجيل، بيروت.
9. السكاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي ت 626هـ.(1987م) مفتاح العلوم : تحقيق: نعيم زقزوق، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.
10. القزويني: الخطيب ت 739هـ. (2000م) الإيضاح في علوم البلاغة : تحقيق د. رحاب عكاوي، ط1، دار الفكر العربي بيروت.
11. السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ت 911هـ . همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبدالحميد هنداوي، المكتبة التوقيفية، القاهرة.
12. الزوزني: أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين ت 486هـ، (2009م) شرح المعلقات السبع ط3، دار الكتب العلمية، بيروت.

13. الحضرمي: محمد بن إبراهيم بن محمد ت 609هـ. (1991م) شرح ديوان امرئ القيس، تحقيق د. أنور أبوسويلم آخرين، دار عمار، الأردن.
14. أبوهلال العسكري: الحسن بن عبدالله بن سهل ت 395هـ. (1986م) الصناعتين : الكتابة والشعر: تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، بيروت.
15. النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، ت 733هـ. (2004م) نهاية الأرب في فنون الأدب : تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
16. الزركشي: بدرالدين محمد بن عبدالله بن بهادر ت 794هـ. (1957م) البرهان في علوم القرآن: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط1، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي. ثم صورته دار المعرفة بيروت.
17. ابن جني: أبوالفتح عثمان ت 392هـ ، الخصائص:. تحقيق محمد علي النجار ، عالم الكتب بيروت.
18. الطيب: بروفيسور عبدالله ت 2003م. (1970م) المرشد إلى فهم أشعار العرب و صناعتها، ط، 1دار الفكر بيروت.
19. السكري: أبو سعيد ت 275هـ. (2000م) شرح ديوان امرئ القيس: تحقيق أنور عليان و محمد علي الشوابكة ، ط1، إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ.
20. البطليوسي: الوزير أبوبكر عاصم بن أيوب ، ت 494هـ. (2011م) شرح ديوان رئيس الشعراء امرئ القيس، تحقيق: محمد السيد عثمان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،
21. الشنتمري: الأعلم ت 476هـ. ديوان امرئ القيس: (نسخة الشنتمري المضمنة فيه) ، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ط5، دار المعارف بمصر.
22. الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الكاتب ت 356هـ. (2000م) الأغاني: تحقيق سمير جابر ، ط1، دار الفكر، بيروت .
23. ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ت 282 أو 290هـ. (1963) أدب الكاتب تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط4،المكتبه التجارية، مصر.
24. البغدادي: عبدالقادر بن عمر ت 1093هـ. (1998م) خزانة الأدب ولُب لباب لسان العرب: تحقيق محمد نبيل طريفي، وأصيل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية بيروت.
25. الجاحظ: أبوعثمان عمرو بن بحر ت 255هـ. (1996م) الحيوان:. تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل، بيروت.
26. الرازي: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي ت606هـ،(2000م) التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،.
27. الثعالبي: أبو منصور عبد الملك عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت429هـ،(1985م،) الإعجاز والإيجاز، ط3، دار الغصون – بيروت لبنان.